

الفصل التاسع

جيش من فرد واحد

«أريد أن أقتل كل أفغاني يقع تحت يدي»

- «جاك» في كتاب «مطاردة ابن لادن»

«إن الشيء الوحيد الأخرى بجاك أن يهاجمه هو فاتورة البار الذي

كان يرتاده،

- صاحب فندق مصطفى في كابول.

في العاشر من أيلول / سبتمبر من عام 2001، كان جوناثان كيث إديما يعيش حياة جندي متقاعد ذي أسبقية جنائية يمكن وصفها بأنها أقل من هادئة في مدينة فييتفيل بولاية كارولينا الشمالية. وفي اليوم اللاحق، وبينما كان يشاهد مقتل آلاف الأمريكيين بأمر عربي معمم ملتصق مختبئ في كهف في جبال جنوب آسية، وجد جوناثان إديما هدفه الجديد في الحياة. فهو الآن عازم على قتل ابن لادن وكل إرهابي مشتبه به يمكن أن يقع تحت يديه. وأخبر جوناثان أسرته ورفاقه على الفور بأنه سيجهز متاعه ويتوجه إلى أفغانستان حالما يجد وسيلة لذلك بأسرع وقت ممكن. وكان الخطاب الذي وجهه بوش للشعب الأمريكي عبر شاشات التلفاز بعد تلك الحادثة بيضعة أيام، الذي أعلن فيه أن ابن لادن مطلوب «حياً أو ميتاً» هو التوجيه الذي جاء ليعزز طموحات تقبع تحته مشاعر غضب مستعر. لقد فتح عالم ما بعد 11 أيلول / سبتمبر باباً واسعاً من الفرص العجيبة أمام المغامرين، والمخادعين، ومنتهزي الفرص، وخلق بيئة مثالية لأشخاص من أمثال جوناثان إديما لإشباع أقصى الجوانب المهيمنة في شخصيتهم: مشاعر الوطنية العمياء والحاجة إلى أعمال الإثارة والإعجاب، كما أن المكافأة التي بلغت عشرات الملايين لمن يأتي برأس ابن لادن كانت محفزاً قوياً لذلك الطموح. وبدأ كيث بالاستعداد لأول رحلة له

إلى أفغانستان، وهي الرحلة التي كانت بداية ملحمة سوداء انتهت بالقبض عليه في كابول بتهمة إدارة سجن غير قانوني وتعذيب المحتجزين فيه.

بدأ تحول إديما من عسكري سابق متعثر الحظ وصاحب أسبقية جنائية إلى «وطني من الطراز الأول» - كما يطلق هو على نفسه الآن- في 12 أيلول/ سبتمبر من عام 2001، حين نجح في الترتيب لظهوره في مقابلة تلفزيونية على محطة كي تي تي في التابعة لشبكة فوكس نيوز، مدعياً بأنه خبير في مجال مكافحة الإرهاب. وبهذه الصفة، زعم أمام مشاهديه أن هناك احتمالاً أن تكون ثلاث طائرات كندية قد اختطفت في اليوم السابق. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تبدو ضرباً من الهراء، إلا أن إديما قدمها بأسلوب المتبحر المتيقن من معلوماته، وهو الأسلوب الذي مكنه فيما بعد من أداء عدد من الأدوار التي تقمصها بنجاح في السنوات الثلاث اللاحقة. ومنذ اللحظة التي ظهر فيها على شاشة التلفاز بصفته خبيراً في الإرهاب في 12 أيلول/ سبتمبر وحتى اللحظة التي قبض عليه فيها في شهر تموز/ يوليو من عام 2004، عُرف إديما بعدة أشياء منها: منتج أفلام وثائقية، ومتعاقد لتقديم الخدمات الإنسانية، ومتعاقد أمني مع وكالة الاستخبارات المركزية، ومتعاقد مع وزارة الدفاع، وفرد من أفراد القوات الخاصة، ومستشار لتحالف الشمال الأفغاني، ودليل سياحي، وموظف في البنتاغون، ومستشار إعلامي، ومدير سجون مستقل، ومحقق وممارس للتعذيب، وساع للحصول على جائزة القبض على ابن لادن. بعض هذه الأدوار كان حقيقياً، وبعضها كان من نسج الخيال، غير أن تلك الأدوار لم تخضع لأي تساؤل أو تحقيق حكومي إلا بعد ضغوط شديدة من قبل ضحاياه. وهو ما أدى إلى اعتقاله هو وعصابته الصغيرة من المرتزقة. لم تكن أعمال إديما الاستغلالية سوى جزء بسيط مما كان يجري في أفغانستان، ولم يكن جاك نفسه سوى لاعب هامشي يفتقد إلى دور حقيقي في صناعة الأمن الخاص التي تعمل بحسب الأصول. ومع ذلك، فإن النجاح الذي حققه إديما في أفغانستان يشير إلى الخطر الكامن في زيادة انتشار المدنيين المسلحين في مسرح الحرب.

إن الطبقات المتعددة من عمليات الاحتيال التي تلف حياة جوناثان كيث إديما تجعل من مهمة حل لغز هذا الرجل أمراً عسيراً. وتفيد القصص الملفقة والروايات المضللة التي يقدمها للصحافة إلى أن أي مقابلة تجرى معه ستكون أقرب إلى التسلية منها إلى

الفائدة والحقيقة. لكن، في أثناء حديثي إلى الزملاء وغيرهم ممن عرفوا إديما وتعاملوا معه، ظهرت صورة مقلقة عن سهولة قيام شخص عادي - وإن كان يعاني عيوباً عميقة - باستغلال طريقة أداء العمليات السرية وانتهاز التوسع الذي طرأ على توجه الحكومة الأمريكية نحو استخدام الشركات الأمنية الخاصة. ولقد أثبت إديما أن شخصاً مدنياً مبتدئاً طموحاً يملك مهارات معينة يمكنه الاستمرار في أعماله الاحتياطية بكل إصرار وعناد على نحو مستقل وبمعزل عن أي رقابة حكومية، أو توجيه، أو دعم مالي خارجي.

بعد 11 أيلول / سبتمبر، شعر إديما الذي كان مدفوعاً بمشاعر الغضب وأحاسيس الوطنية العميقة في نفسه، أن بإمكانه القبض على ابن لادن إذا أُتيحت له الفرصة. ولكن عليه أن يجد طريقه إلى أفغانستان أولاً. وفي رحلته الأولى إلى منطقة الحرب، نجح إديما في خلق فرصة لنفسه بالعمل لمصلحة محطة ناشونال جيوغرافيك، التي مولت إنتاج فيلم وثائقي كان يفترض فيه أن يرصد عمل اثنتين من المنظمات الإنسانية العاملة في أفغانستان. وفي حين أن هذا المشروع يبدو عملاً بريئاً بل عملاً شجاعاً، إلا أن إديما انتهى به المطاف إلى النصب والاحتيال على منظمين غير حكوميين، وإنتاج فيلم وثائقي يسجل دراما أعماله البطولية.

يملك إديما ذو البنية القليلة، والبصر الضعيف، والشعر الخفيف المصبوغ باللون الأسود، شخصية مهيمنة وجذابة متى أراد ذلك. ومع أن طوله لا يتعدى متراً وخمسة وسبعين سنتيمتراً، إلا أن بإمكانه أن يترك انطباعاً طويلاً الأمد على الأشخاص الذين يلقونه. ولا يظهر إدوارد آرتيس، مدير إحدى المنظمات غير الحكومية التي وقعت ضحية لاحتياله، من مشاعر الاحترام تجاه إديما أكثر مما يظهره غيره من الأشخاص الذين تعاملوا مع هذا الرجل، ويقول في إديما: «لو كان دَلَّوْه الذي يحمله على كتفه مليئاً بالقاذورات وسقط عليه، فلا بأس في ذلك من وجهة نظري».

يتخصص آرتيس، وهو جندي مظلي متقاعد من الفرقة الثانية والثمانين، في أعمال الإغاثة الإنسانية في المناطق الواقعة على خط النار، وقد بدأ بعمله هذا في مطلع سبعينيات القرن الماضي، وعمل في أفغانستان عدة مرات. وتحرص منظمته الخيرية الصغيرة التي يطلق عليها نايتبريج إنترناشونال (منظمة جسر الفرسان الدولية) على السرعة وعدم

التعقيد في أعمالها. ومع أنه اصطحب معه مصور أفلام في رحلته الأخيرة إلى جنوب آسيا، وإدراكاً منه لأهمية الذبوع الإعلامي في جلب التبرعات، فقد وافق على أن يقوم فريق تصوير أفلام تابع لتلفاز ناشونال جيوغرافيك بالانضمام إلى قافلته بعد أن قام أحد أصدقائه بتزكية إديما عندهم.

«لقد وقعت تلك الحادثة المتعلقة بناشونال جيوغرافيك عن طريق إديما. وأنا أعترف بأنني أخطأت التقدير. ففي تشرين الأول / أكتوبر من عام 2001، اتصل بي زميل لي من محفل فرسان مالطا¹، وهو ضابط متقاعد برتبة رائد في القوات الخاصة، وكاتب في مجلة جنود المغانم. ثم أرسل لي إديما رسالة إلكترونية بعد أن قدمه لي موريس. وما ظننته آنذاك، أن إديما كان شخصاً خرج لتوه من السجن، وأنه يسعى إلى فعل شيء نبيل ليصلح سمعته.... وقال لي: إنه يعمل على إخراج فيلم وثائقي لمحطة ناشونال جيوغرافيك التلفزيونية بالتعاون مع المخرج غاري سكوركا والمصور إد كاربالو الذي كان يعمل سابقاً في محطة سي بي إس».

وعلى الرغم من الانطباع الأولي الذي تولد لدى آر تيس، إلا أن جوناثان كيث إديما لم يقدم نفسه على أنه صاحب أسبقية جنائية يحاول السير في الطريق المستقيم، بل أعاد تشكيل نفسه باسم جديد هو «جاك» الذي يمثل شخصية من يحارب الجريمة، ويبتطش بالأشرار، فهو جندي سابق خدم في وحدة القبعات الخضراء (القوات الخاصة) ويملك مهارات مدهشة وعلاقات سرية لإنقاذ العالم من الشر. غير أن الحقيقة هي أن إديما كان مفلساً مادياً، وكان متورطاً في عدة دعاوى قضائية كيدية عابثة يهدف من ورائها إثراء نفسه دون وجه حق، من بينها دعوى على شركة دريم وركس بحجة أنها سرقت قصة حياته، ووصل به الأمر إلى مقاضاة إحدى الشركات لأنها استردت سيارة جيب كانت باعته له بعد أن تخلف عن دفع أقساطها. ويمكن لنظرة سريعة على خلفية إديما أن تكشف عن سجل من الاعتقالات الأمنية على تسلمه وحيازته أموالاً مسروقة، والتصرف برعونة، ومقاومة رجال الأمن، والفرار من وجه العدالة، وحادثتي اعتداء

1- مجموعة أخوية كاثوليكية يعود أصلها إلى عصر الحروب الصليبية وتعرف بمسميات أخرى مثل «هوسبيتلرز».

عن طريق إشهار سلاح ناري وتصويبه، وإطلاق النار على مسكن مأهول، وتهديد فتاة والاعتداء عليها، وإدانة من محكمة فدرالية بتهمة التآمر، وخمس وخمسين تهمة بالاحتيال الإلكتروني¹. لم تطلأ قدما إديما أرض أفغانستان من قبل، ولم يسبق له أن قام بأي عمل من أعمال الإغاثة الإنسانية، ولكنه رأى في عدسة كاميرا تصوير الفيلم الوثائقي فرصة سانحة لتسجيل الأعمال البطولية التي كان ينوي القيام بها، أو على الأقل إضفاء عنصر درامي عليها، لتحقيق الشهرة والمكاسب المادية.

لم يكن الفيلم الوثائقي الذي كانت تعده قناة ناشونال جيوغرافيك هو المحاولة الأولى لمسعى إديما في إظهار نفسه بطلاً يشار إليه بالبنان. ففي أيار/ مايو من عام 1995، أرسل جم موريس فكرة فيلم إلى ستيفن سيلبيرغ بعنوان مدفع منفلت: قصة كيث إديما، واصفاً الفيلم بأنه «استعراض مبني على الأعمال البطولية التي قام بها إديما، ولكنه طافح بالقصص الخيالية»، وهو نمط ينتهجه إديما بدقة في حياته. وأصبحت قصة هذا الفيلم محلاً لدعوى قضائية رفعها إديما وموريس عام 2000 على ستيفن سيلبيرغ، وشركة دريمويرك، وجورج كلوني، وغيرهم ممن لهم علاقة بالفيلم الذي أنتج عام 1997 بعنوان صانع السلام، وتدور أحداثه حول تهريب أسلحة نووية. وطالبت الدعوى بدفع تعويضات مقدارها 150 مليون دولار، غير أن المحكمة ردت الدعوى وحكمت على إديما بدفع الرسوم وأتعاب المحامين التي تكبدتها شركة دريمويرك في هذه القضية والبالغة 273.300 دولار.

وبحسب ما جاء في نص الفيلم المقترح لوس كانون (المدفع المنفلت)، يدعي إديما بأنه حين كان يعمل في ليتوانيا في تدريب قوات الأمن والشرطة في بداية تسعينيات القرن الماضي، علم بوجود شبكة قوية تعمل في تهريب المواد النووية من دول الاتحاد السوفييتي السابق وبيعها في السوق السوداء. وحين عاد إلى الولايات المتحدة، قام إديما بإيصال هذه المعلومات إلى البنتاغون ومكتب التحقيقات الفدرالي، ولكنه رفض الكشف عن المصدر الذي حصل منه على هذه المعلومات. وحين ألقى القبض على إديما بعدها بتهم تتعلق بارتكاب خمسين عملية احتيال باستخدام وسائل الاتصال الإلكتروني، ادعى أن

1- وهو الاحتيال الذي تستخدم فيه وسائل الاتصال الحديثة كالانترنت، والهاتف.

مكتب التحقيقات الفدرالي يسعى إلى معاقبته لأنه لم يكشف عن مصدر معلوماته. وقال إن هذه المؤامرة هي سبب محاكمته، وإدانته، ووضعه في السجن الفدرالي، وليس بسبب قيامه بتزوير الوثائق المتعلقة ببطاقات الائتمان للحصول على ما يلزمه لتشغيل شركته الخاسرة المتخصصة بالبيع عن طريق البريد، دون أن يدفع ثمن تلك اللوازم. إن الإساءة عن طريق المؤامرة، وكره مكتب التحقيقات الفدرالي، والادعاء بسرقة الأملاك، والإنكار التام لارتكاب أي خطأ، كانت -وما زالت- تمثل أفكاراً محورية في حياة إديما سنوات مديدة قبل أن يتوجه بأخر مغامراته إلى أفغانستان.

تجاهل إديما، في أثناء محاكمته، المحامي الذي عينته المحكمة للدفاع عنه، وقام هو نفسه بالدفاع عن نفسه. وكان يردد الادعاء بوجود مؤامرة تستهدفه، ويقلل من شأن الأدلة الموجهة ضده، ويسخر من القاضي والمدعي العام. وقد استاء القاضي الذي ينظر في القضية من مزاعم كيث ومن أذاره، ومن سلوكه الاستفزازي. وخاطب القاضي والاس ديكسون إديما قائلاً: «بحسب تقديري، أعتقد أنك شخص عرييد تعشق الثرثرة، وتحب أن تسمع قرعة لسانك». ثم تابع القاضي ديكسون كلامه قائلاً: «أعتقد أنك شخص مريض، ولا أملك وسيلة أخرى للتعبير عن هذه الحقيقة. أعتقد أنك مصاب في عقلك». وكان رأي القاضي تيرينس بويلز بإديما على قدر مساوٍ من القسوة حين قال: «إن كل ما تسوقه من ادعاءات حول وطنيتك المتفانية وكونك شخصاً فريداً متميزاً هو من نسج الأوهام والخيال». وكان رد إديما المعتاد هو: «سأقاضي مكتب التحقيقات الفدرالي... إنهم يدركون أنني سأذهب إلى التلفاز، ويعلمون أنني سأذهب إلى الكونغرس، ويعلمون أنني لن أستسلم حتى أثبت براءتي». وفي الحادي عشر من نيسان/ إبريل من عام 1995، حُكم على كيث إديما البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً بالسجن أربع سنوات وبغرامة قدرها 250 ألف دولار.

بعد هزيمته القاسية في المحاكم، نقل إديما معركته إلى وسائل الإعلام، فقام صديقه القديم جم موريس وشريكه في الدعوى التي رفعت على شركة دريمويرك، بدعم رواية إديما عن الحيف الذي لحق به، وكتب في مجلة جنود المغانم مقالة نشرت في عدد نيسان/ إبريل وأيار/ مايو من عام 1995. ولم يمض وقت طويل حتى أرسلت محطة سي بي إس

واحداً من أبرز المحققين الصحفيين العاملين لديها واسمه غاري سكوركا لإجراء حوار تلفازي مع إديما في السجن. ونال التحقيق حول التهريب النووي في ليتوانية الذي بث ضمن برنامج «ستون دقيقة» في تشرين الأول / أكتوبر من عام 1995 عدداً من الجوائز التقديرية في مجال التحقيق الصحافي، غير أن محرري البرنامج شعروا بعدم الارتياح من دقة واحد من مصادر التحقيق، فقرروا إزالة المقابلة التي أجريت مع إديما في السجن الفدرالي من ذلك الفيلم.

واتصل إديما بعد أن خرج من السجن بالمحقق سكوركا عام 1997، وأنشأ الاثنان شركة إنتاج إعلامي أطلقوا عليها اسم «بوينت بلانك نيوز». واقترح إديما أول مشروع لهذه الشركة، وهو إنتاج فيلم بعنوان أي رجل أقل شأنًا: قصة كيث إديما. لكن الشركات الإعلامية والممولين، وعلى الرغم من اقتناع سكوركا بقصة إديما، لم تشاركه هذا التحمس. ولم يتمكن الاثنان من جمع سوى ربع المبلغ اللازم لإنتاج الفيلم، والبالغ مليون دولار، وانتهى بهما الأمر إلى تأجيل المشروع برمته.

رأس البطاطا

حين انتهى إلى علم إديما بعد الحادي عشر من أيلول / سبتمبر أن إد آرتيس ينوي التوجه إلى أفغانستان، فلا بد أنه رأى في ذلك فرصة مواتية لإعادة إخراج فكرة فيلمه المقترح «أي رجل أقل شأنًا» بقلب مختلف. وعلى الرغم من أن مقترح الفيلم الوثائقي الذي قدمه كان يركز على جهود إد آرتيس، إلا أن إديما تصوّر لنفسه دوراً بطولياً على اعتبار أنه جندي سابق آخر تحوّل إلى العمل في مجال الإغاثة مقتحماً مخاطر الوغى للتخفيف من معاناة فقراء أفغانستان. ومع اقتراب شن الحرب الأمريكية على طالبان، وتعطّش الجمهور الأمريكي إلى أي معلومات عن عدوهم الذي اكتشفوه قريباً، تزاممت المحطات الإعلامية بالمناكب لملء برامجها بأي شيء له علاقة بأفغانستان. وفي مثل هذا الطقس، لم تول هذه المحطات أي اعتبار لحقيقة أن إديما لم يكن له أي صلة تربطه بأعمال الإغاثة الإنسانية، أو العمليات العسكرية، أو النشاطات التجارية في أفغانستان. وكان الاقتراح الذي تقدم به إلى محطة ناشونال جيوغرافيك لإنتاج فيلم بعنوان «عملية

البحث عن الطريق»، يصوّر «كيث» بوصفه قائد فريق من جنود الصاعقة السابقين جاء لينقذ «السيد إدوارد آرتيس»، وهو جندي سابق شارك في الحرب الفيتنامية وأحد «أبرز الناشطين في أعمال الإغاثة الإنسانية على المستوى العالمي». ووصف الاقتراح كيث بأنه رجل دخل السجن بسبب جريمة لم يرتكبها وهو الآن يريد «العودة إلى أعمال المغامرة والإثارة».

اتصل إديما بإد آرتيس حين كان هذا الأخير في طاجيكستان ينتظر إتمام إجراءات دخوله أفغانستان ومعه المصور إدريان بيليك، لتصوير فيلم وثائقي عنوانه أبعد من نطاق المهمة. ويتذكر آرتيس بأن إديما لم يكن واضحاً حول المحور الرئيس للفيلم الوثائقي الذي اقترحه منذ أول حديث دار بينهما. ويقول آرتيس: «كنا في القافلة نستعد للتوجه إلى أفغانستان حين تلقيت مكالمة من إديما على هاتفي النقال الذي يعمل عن طريق الأقمار الصناعية. وقد قمنا بتصوير تلك المكالمة. ولدي صور له وهو يحدثني عن مشروع فيلم ناشونال جيوغرافيك. (يرغب غاري سكوركا من ناشونال جيوغرافيك أن يحضر لإنتاج فيلم وثائقي عنك). فسألته (وما هي الفكرة المركزية لهذا الفيلم ... لدي خبرة كافية في هذا العمل، دعني أرَ الخطوط العريضة للفيلم). فقال إديما: (سنقدم لك الخطوط العريضة قبل أن نلتقي). وأخبرني إديما بأن (غاري سكوركا لا يرغب في إرسال تلك المعلومات عن طريق البريد الإلكتروني، وسوف نحضرها معنا حين نلتقي). فقلت له: حسناً. وكانت الفكرة أنهم كانوا يريدون إنتاج فيلم وثائقي عن جهود منظمة نايتبريج إنترناشونال في مساعدة الشعب الأفغاني. كما تعلم، أفراد متقاعدون من الجيش يقومون بأعمال مساعدة إنسانية في الوقت الذي تتساقط حولهم القذائف والقنابل. التغطية الإعلامية هي شيء جيد، لكن إنجاز المهمة التي أتيت من أجلها يأتي في المرتبة الأولى. ولم أت إلى هنا لتحقيق شهرة شخصية».

لم يرغب آرتيس في تأخير مهمته في أفغانستان، وسرعان ما نفذ صبره من تأخر فريق الفيلم الوثائقي الجديد المزعج الذي سيتبعه. (قلت لإديما أن يأتي عبر طاجيكستان ويحصل على تأشيرة دخول إلى أفغانستان من هناك. قلت له: «اعلم أنني لن أجلس هنا في انتظارك. إننا متوجهون إلى منطقة حرب، أيها الأخرق») وعلى الرغم من أن

المنظمات غير الحكومية كانت ممنوعة من دخول أفغانستان في ذلك الوقت، إلا أن آرتيس وبيليك استطاعا الدخول تحت غطاء العمل الصحافي، واضطرا إلى عمل بعض التقارير الإخبارية لتسويق حصولهما على تأشيرات الدخول والإقامة في أفغانستان.

وفي نهاية شهر تشرين الأول / أكتوبر من عام 2001، توجه إديما وسكوركا أخيراً إلى أفغانستان، يرافقهما غريغ لونغ، وهو مقدم متقاعد من القوات الخاصة يعمل حالياً في مجال الإغاثة الإنسانية في مؤسسة الشركاء الدولية، وهي منظمة خيرية غير حكومية كان يفترض أن يغطي نشاطها في الفيلم الوثائقي لمحطة ناشونال جيوغرافيك. وكما يتذكر آرتيس، فإن المجموعة واجهت مصاعب قبل أن تبدأ رحلتها: «لقد توجهوا بالطائرة إلى روسية ثم إلى أوزبكستان دون تأشيرة دخول، وقد سبق أن أخبرتهم بضرورة الحصول على تأشيرة الدخول قبل السفر، وكنت أظن أنهم يعملون مع منظمات غير حكومية، وأنهم يعرفون كيفية الحصول على تأشيرة الدخول، وقامت السلطات الأوزبكية باعتقال ثلاثتهم مدة ثلاثة أيام في استراحة الأشخاص المهمين». وفي الثاني من نوفمبر 2001، تمكن إديما من إقناع موظف شاب في السفارة بأنه متعاقد مع وزارة الدفاع. وهذا الخطأ يمكن تفهمه؛ لأن إديما طلب إلى السفارة التثبت من جنسيته الأمريكية عن طريق رئيس مؤسسة الشركاء الدولية الذي كان أيضاً ضابطاً برتبة عقيد لا يزال على رأس عمله في قيادة العمليات الخاصة (سوكوم)، وهي القيادة المسؤولة عن إدارة العمليات السرية.

ويتابع آرتيس كلامه: «قال العقيد بوب موريس: إنه تلقى مكالمة هاتفية من شخص يعمل في السفارة الأمريكية، وبصفته ضابطاً برتبة عقيد لا يزال على رأس عمله، ولأنه كان يرغب في الحصول على راتب تقاعدي أكثر مما يقدمه الجيش [من عمله الجانبي في مجال الإغاثة]، فقد طلب إليه التثبت من الجنسية الأمريكية لهؤلاء الأشخاص. هذا كل ما في الأمر. غير أن العقيد موريس لم يخطر بباله ما سيحوكه إديما من هذا الطلب. لقد طلب إليه التثبت من أن هؤلاء الثلاثة يحملون الجنسية الأمريكية وحصلوا منه على رسالة تؤكد ذلك. أما كيف حصلوا على رسالة تقول إن سكوركا، وإديما، وغريغ لونغ كانوا يعملون بعقد لمصلحة وزارة الدفاع، فهذا أمر لن أعرفه ألبتة».

يؤدي العقيد بوب موريس نشاطه في العمل الإنساني إلى جانب دوامه الكامل في وظيفته العسكرية. وليس من الصعب تخيل أن إديما غمز بعينه موظفي السفارة وأوماً برأسه حين طلب إليهم إخراجهم من ورطة اعتقاله عن طريق التثبيت من جنسيته عن طريق العقيد بوب موريس الذي يعمل في قيادة العمليات الخاصة. وفي العادة يجري التثبيت من الجنسية عن طريق وزارة الخارجية، وأكدت رسالة إلكترونية من السفارة الأمريكية أن ملحقاً عسكرياً برتبة دنيا ظن أنه أسدى للعقيد بوب موريس معروفاً. [بمساعده إخراج إديما ورفاقه من الاعتقال].

«أظن أن إديما يحمل هوية عسكرية مزورة تقول: إنه برتبة رائد، وهذا ما سمح له بدخول البلد. ثم تحولت الكذبة إلى كذبة أخرى بعد أن حصل على تلك الرسالة من السفارة».

وبعد أن اكتشف آرتيس مكر إديما وكذبه، حاول أن يحذر الآخرين منه، غير أن تحذيراته وجدت أذناً صماً. ويرى آرتيس أن الرسالة الأولى التي حصل عليها من السفارة قدمت له «غطاءً رفيع المستوى» وهو كل ما يحتاجه للتظاهر بأنه متعاقد سري مع وزارة الدفاع. «لقد حاولت تحذير الناس منه، وحذرت الأفغان منه، لكنني الآن أدرك لماذا لم يفعلوا أي شيء معه ... إن تلك الرسالة مكنته من إبطال تحذيراتي. وفي كل مرة أقول للأفغان إنه فعل كذا أو قال كذا، كان الأفغان يتجاهلونني».

ويتذكر آرتيس بعض علامات الخطر الأولية. «أرسل لي إديما رسالة إلكترونية من طشقند يخبرني فيها بأنه سيحضر معي ترجماناً، فتاة تتحدث الروسية. رددت عليه برسالة تقول: «توقف، إياك أن تحضر فتاة روسية إلى المعسكر الأفغاني». وتبين لي بعد ذلك أن تلك الفتاة كانت مومساً التقطها تلك الليلة ليمارس معها البغاء، ثم جاء بها إلى أفغانستان».

«كما أن إديما لم يكن معه مصور، وهو أمر مستغرب أن يأتي فريق لتصوير فيلم ومعهم كل الأدوات اللازمة لكن دون مصور. وكان واضحاً أن سكوركا لم يكن يجيد التصوير، ولم يكن إديما يحسن التصوير هو الآخر. وكان معهم كاميرات جديدة، وهي ليست من نوع بيتا، لكنها تخرج صوراً عالية الجودة. وكانت تلك اللحظة هي أول لقاء بيننا، وكان ينتابني بعض الشكوك، لكنني قلت لنفسي لقد سبق لي أن تعاملت مع مجانيين

في موقع العمل. ولهذا السبب أرى أنهم يصلحون لإنتاج شريط لاصق لا شريط فيديو» ثم ضحك.

«قام إديما وسكوركا بتوظيف شخص يدعى نيل باريت ليقوم بمهمة التصوير - وهو شخص جيد ذو شعر طويل، لكن إديما اشترط عليه تقصير شعره؛ لكي يحصل على الوظيفة. لقد أراد إديما منه أن يظهر بمظهر عسكري».

بدأ آرتيس يشعر بالضيق بعض الشيء في تعامله مع إديما منذ البداية، لكن نواقيس الخطر لم تدق في ذهنه إلا بعد أن قابله وجهاً لوجه، في ليلة إديما الأولى في أفغانستان؛ إذ دعي الجميع إلى تناول العشاء مع أحد كبار القادة المحليين في خوجابودين إحدى القواعد الأمامية لعمليات تحالف الشمال. وبحسب ما يتذكر آرتيس: «وضع الطعام، ودعي الحضور لتناوله. مد سكوركا يده إلى قطعة خبز النان كما هي عادة أهل البلد، فنهره إديما قائلاً: «لا تلمس ذلك الطعام اللعين! إنه قذر. لا تلمس الطعام!» ثم رمى إلى باريت وسكوركا علبتين من علب الوجبات الجاهزة التي يستخدمها الجيش الأمريكي. «ستأكلون وجبات جاهزة، وإياكم أن تشربوا من الشاي الذي سيقدم لكم».

«كان ذلك في الليلة الأولى. وحينها شعرت بأنتي ارتكبت خطأ فادحاً. لقد أدركت أن إديما -وليس سكوركا- هو قائد المجموعة». قرر آرتيس الذي شعر بالشك والانزعاج مما رأى أن يضع قواعد سلوك تحكم عملية تصوير الفيلم الوثائقي. قلت له: «انظر، أنت تتبعني وتصور الفيلم، وليس لك أن تعيد التصوير. لم يعجبه كلامي ودعاني بأبن الفاعلة». فقلت له: «أنت تحب إصدار الأوامر أغرب عن وجهي».

«في اليوم اللاحق ذهبت للقاء جم مسيدا من محطة إن بي سي ولتناول القهوة والاطلاع على آخر المستجدات ... سأل جم: «من هو صديقك الجديد؟» قلت له: «صديقي الجديد هو كيث إديما». فقال إديما: «اسمي جاك، ولا تقل لأحد مع من أعمل». وكان إديما يلبس سترته السوداء ونظاراته السود داخل الفندق».

كان الانطباع الأولي لدى آرتيس هو أنه سيعمل مع سكوركا وأن إديما سيكون مرافقاً لتقديم الأمن والحماية. حتى إنه لم يكن يعلم أن الفيلم الوثائقي سيتطرق لمنظمة غير

حكومية أخرى. «أحضر [إديما] جهاز تخطيط للقلب تبلغ قيمته ستة إلى عشرة آلاف دولار. وهذا حين قال غريغ لونغ، وهو يدعي أنه يعمل مع منظمة غير حكومية تدعى بارتنرز إنترناشونال: «هيا نذهب لتوصيل هذا الجهاز». ثم دفع إديما غريغ لونغ جانباً لالتقاط صورة له. أصابني الدهشة وكنت مستاءً جداً».

ومع تنامي المشاحنة والتوتر، كان اندفاع إديما نحو بؤرة الضوء الإعلامي وحب الظهور سبباً كافياً لآرتيس في أن يفقد صوابه: «بدأ إديما بإجراء مقابلات حول المواد المقاومة للربطية التي تسببت في تسميم الأفغان».

ومعلوم أنهم وضعوا صرراً صغيرة من المواد الممتصة للربطية داخل العلب البلاستيكية الصفراء التي كانت تحتوي على وجبات جاهزة توزعها منظمات الإغاثة على مخيمات الأفغان، وقد اشتكى الأفغان من المرض بعد تناول تلك الوجبات. وبقدرة قادر أصبح إديما الآن خبيراً طبيياً وعسكرياً في أمر سبقه إليه آخرون ولفتوا إليه نظر وسائل الإعلام والقوات العسكرية.

«أخذت إديما جانباً - وقد صورّ نيل باريت هذا المشهد - وأشهرت إصبعي في وجهه قائلاً: «إنني لا أعرف ما هي أجندتك، لكنني لا أريد مشاهدتك في أي مكان أكون فيه. هيا أغرب عن وجهي». وإمعاناً مني في تأكيد هذا المعنى قلت لإديما: «كفّ عما تفعل وأقلع عنه فوراً» ثم حاول غاري سكوركا أن يدافع عنه، فقلت له: إذا كنت حقاً بحاجة إلى إديما لإنتاج هذا الفيلم الوثائقي، فبإمكانك أن تأخذ كل ما التقطته من مشاهد وتجعلها في استك». وسمح لسكورسكا أن يبقى في أثناء توزيع المعونات الإنسانية؛ لأنه كان قد تبعنا لإعداد تقرير عن تلك الجولة». وظن آرتيس أنه حل مشكلته نهائياً، لأن إديما منذ تلك اللحظة لم يكن مسموحاً له الاقتراب من الأماكن التي يجري فيها التصوير، لكن ذلك كان قبل حادثة الهجوم المدفعي الذي تعرضوا له.

في الحادي عشر من تشرين الثاني / نوفمبر، الذي يصادف عيد قدامى المحاربين، وبعد يوم طويل في توزيع المعونات الإنسانية، توجه آرتيس إلى قاعدة المعسكر الذي يقيم فيه بعد الغروب. ومن مسافة غير بعيدة شاهد نيران المدفعية حين سمع صوتاً يستجد

به عبر جهازه اللاسلكي يقول: «إد آرتيس. هل تسمعي؟ لقد أصيب شخص أمريكي بجروح، وهم يريدونك في المعسكر».

أسرع آرتيس إلى الموقع، فرأى الصحافي كيفن سايتس وهو يصوّر المشهد بكاميرا الفيديو، فيما كان إديما: «يدور في مكانه كالحيوان المحبوس في قفص، وكان يتحدث إلى شخص ما من هاتفه الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية قائلاً: أريد طائرة بلاكهوك».

تجاهل إديما آرتيس بادئ الأمر حين سأل من هو الجريح. «ثم سألته ثانية: «من المصاب؟» فقال إديما: «سكوركا».

كانوا يجلسون في الحجرة الخلفية لشاحنة نقل صغيرة (بك أب) وكان سكوركا يتحدث إلى زوجته عبر هاتف نقال آخر يعمل عن طريق الأقمار الصناعية».

صعد آرتيس إلى الحافلة لمعاينة الجروح التي مزقت اللحم عن ركبة سكوركا، وبطنه، وفخذه، ورجله. وقد كان سكوركا وبعض الصحافيين يقفون في العراء حين انهال عليهم وابل من طلقات مدفعية طالبان، فحاولوا جميعاً الاختباء خلف دبابة تابعة لتحالف الشمال، غافلين عن حقيقة أن الدبابة كانت هي الهدف الحقيقي لهجوم طالبان، فأصابت شظايا الانفجار سكوركا.

«وملخص الحالة أن ضابطاً متخصصاً بالإسعاف برتبة مقدم يعمل في القوات الخاصة كان موجوداً في الموقع - وأنا متخصص أيضاً بإسعاف المعارك - فعاين المقدم غريغ لونج الجروح، وسألته هل هي بليغة إلى الحد الذي يتطلب استدعاء إخلاء الجرحى من المكان؟ فكانت إجابته بالنفي».

وفي محاولة منه لكبح جماح ردة فعل إديما المبالغة، رجع آرتيس إلى المكان الذي كان يطوف فيه إديما وهو يصرخ في هاتف الأقمار الصناعية حول حاجته إلى طائرة بلاك هوك.

«سألته مع من يتحدث. وفي تلك اللحظة أخبر إديما الطرف الآخر على الهاتف بأن شخصاً ما من عمال الإغاثة يكلمه. فنزعت الهاتف من يده، وسألته المتحدث في الطرف

الآخر من المكالمة: «مع من أتحدث؟ فجاءت الإجابة بأنه ضابط برتبة رائد في السفارة الأمريكية في طشقند. فقلت له: «أيها الرائد، لقد خدمت في وحدات الإسعاف في فيتنام. ولست أرى أي إصابة خطيرة تستدعي إرسال طائرة مروحية، وإذا رغبت في أن تتوثق من هويتي...». أعطيته رقم أحد المعاونين العاملين في مكتب دانا روهرا باتشر في الكونغرس الأمريكي، وأخبرته بأنه لا يوجد داع لتعريض حياة مزيد من الأشخاص للخطر، أو التسبب في إحداث مشكلة دولية، ثم نزعته الهوائي من جهاز إديما وناولته إياه.

وقال آرتيس بأنه صرخ في وجه إديما قائلاً: «إن تماديت معي مرة أخرى، فسأسعى لاعتقالك أو إطلاق النار عليك. سنقوم بنقل غاري إلى المستشفى». سكت إديما ولم ينبس ببنت شفة، فقد أخذ منه الذعر كل مأخذ. وقلت له: «أغرب عن وجهي، وسنقوم بتكملة الفيلم، ويمكنك مشاهدته حين يبث في التلفاز».

ويتذكر الصحافي كيفن سايتس ذلك الحدث ويقول: إن آرتيس تصرف على نحو لائق، وإن إديما كان يتصرف بصلف وغرور بهدف الإثارة وجلب الأنظار إليه. فقد كان ثلاثة أشخاص في موقع الحدث، ومنهم آرتيس، ممن لديهم تدريبات متقدمة في الإسعاف الطبي؛ في حين أن إديما ليس لديه أي خبرة في هذا المجال. ومع ذلك، عزا سكوركا الفضل إلى إديما لاكتشافه جرحاً لم ينتبه إليه الآخرون في أثناء نقله إلى المستشفى.

يرجح آرتيس وآخرون الرأي الذي يقول: إن إديما كان يعرف قيمة المشهد الذي جرى تصويره. «فعملية الإنقاذ الجريئة» ستكون جزءاً من فيلمه الوثائقي، بحيث تظهره بصورة البطل الذي أنقذ الموقف. وقد تأكدت شكوك آرتيس حين قرأ نص اقتراح إنتاج الفيلم الوثائقي الذي قدمه إديما وسكوركا لمحطة ناشونال جيوغرافيك.

«كان اعتقادي، حتى اليوم الذي سبق مغادرتنا بالطائرة المروحية، أن الفيلم الوثائقي كان عن مؤسستنا، لكنهم لم يقدموا لي نص الفيلم. وفي اليوم الأخير قبل مغادرتي، فتشت حقيبة سكوركا. حيث استيقظت باكراً، وقد كان إديما وسكوركا يجريان مقابلة معاً في ملعب التنس في الخارج، فوقع عيناى على الملف الذي كانا يرجعان إليه حين كنت أقوم بأعمالي. وجدت في هذا الملف رسالة تحمل ختماً ذهبياً كبيراً لمحطة ناشونال جيوغرافيك

وعليها توقيع تيم كيلبي: «إلى من يهمة الأمر، سيقوم غاري سكوركا بتصوير فيلم وثائقي حول جهود الإغاثة الإنسانية التي تدعمها منظمة الأمم المتحدة في أفغانستان، ويعمل معه في هذه المهمة كيث إديما. ويملك السيد إديما ما يكفي من المال اللازم لدعم هذا المشروع أو شيء بهذا المعنى». ولقد كان هناك أيضاً نص مكتوب للفيلم في خمس صفحات، وفي النص قائمة لمشاهد تتحدث عن انضمامهم إلينا، ثم تقع منظمة الإغاثة غير الحكومية في ورطة، ليأتي كيث إديما وينقذ الموقف. فأدركت وقتها أنهم نصبوا لنا الفخ لنقع فيه».

«فيما بعد، اتصل بي غاري وقال لي: إنه يريد مني أن أوقع له إذناً بالنشر لما التقطه من مشاهد وصور. فقلت له: «لن أسمح لك باستخدام صورتني، ولا صوتي حتى أر نص الفيلم. وإذا كان في الفيلم صورة واحدة أو إشارة إلى كيث إديما وإن كان ذلك في قائمة الشكر الخاص في آخر الفيلم، فلن أسمح لك باستخدام اسمي». ولهذا السبب لا تجد لإديما ذكراً في الفيلم الوثائقي الذي أنتجوه». لقد خُدمت محطة ناشونال جيوغرافيك حين قدمت المال والدعم - عن قلة احتراز - لدخول «جاك» في الحرب على الإرهاب.

حيل بين «جاك» وبين عالمه الحقيقي مرة أخرى، ووجد نفسه بلا عمل في جنوب آسية، بعيداً عن دوره البطولي الأسطوري في أعمال الإغاثة الإنسانية، وبعيداً عن بسالته في ساحة المعركة. ونظراً لما اشتهر عنه من دهاء وحيلة، لم تخل من الانتهازية والافتقار إلى المعيار الأخلاقي، فقد أبقى إديما نفسه مشغولاً بعد أن انفصل عن آرتيس، مقدماً نفسه للإعلاميين في أفغانستان على أنه «خبير» وحصل بذلك على عدد كبير من المقابلات الإعلامية. ويتذكر الصحفيون قيام إديما ببيع خدمات نقلهم بأسعار مرتفعة على متن واحدة من الطائرات المروحية البالية من طراز مي-17، العائدة للقائد مسعود خليلي من تحالف الشمال.

كان أكثر الإعلاميين يسخرون في خلوتهم من إديما بوصفه شخصاً حقيراً يسعى إلى أن يكون بطلاً عدا عن كونه دليل حرب غريب الأطوار. وبحسب رأي آرتيس، فإن الصحفيين في خواجهودين كانوا يطلقون على هذا الشخص الضئيل، جاحظ العينين، المسلح، عامل الإغاثة المرتزقة، الخبير في الإرهاب البائع الجوال لقب «رأس البطاطا» وذلك لقدرته على التخفي تحت عدد كبير من الأقنعة المختلفة. ومع أنه بدا على صداقة

ومودة مع قيادة التحالف الشمالي، إلا أن أحداً لم يتمكن من معرفة من يكون جاك هذا. وكان آر تيس على الأقل يعلم من يكون جاك هذا، وبدأ آر تيس بالاتصال بتحالف الشمال والمسؤولين الأمريكيين لتحذيرهم من مكر إديما ومكايد.

وفي منتصف شهر تشرين الثاني / نوفمبر، كتب هارون أمين، الناطق الرسمي باسم تحالف الشمال، رسالة موجهة إلى آر تيس يقول فيها: إن إديما لم يكن يعمل لمصلحتهم. وبعد أسبوعين من ذلك التاريخ، أخبر إديما مراسلاً إعلامياً يعمل لدى صحيفة فايتفيل أبزيرفر عبر هاتف الأقمار الصناعية أنه «يعمل مع تحالف الشمال». فلو نجح إديما في إقناع تحالف الشمال بأنه يقوم بمهمة سرية، فإنهم كانوا سينكرون أنه يعمل معهم، ومن المحتمل أن يكون إديما قد أقتع القائد المحلي مسعود خليلي بإنشاء مشروع تجاري لنقل الصحافيين بين مناطق النزاع في أفغانستان دون علم القيادة العليا. والشيء الوحيد الذي يمكن استنتاجه بدرجة عالية من اليقين هو أنه لو كان إديما متعاقداً أمنياً مستقلاً مكلفاً بمهمة أمنية في أفغانستان في ذلك الوقت، لكان أمامه إنجاز أعمال طارئة لا تترك له مجالاً لاستغلال الصحافيين في جمع الأرباح، هذا عدا عن أن العميل السري لا يلهث وراء الظهور في وسائل الإعلام.

وفي الوقت الذي كان فيه جاك يسعى في جمع المال في ساحة الحرب، اتصل آر تيس ببيلي واه بحثاً عن مزيد من المعلومات عن ادعاءات إديما. وكما يتذكر ببيلي فإن: «إد آر تيس كتب له رسالة قال فيها: إن جاك إديما يقول للناس: إنه يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية. وسألني إد: «هل هذا صحيح؟» ولم أكن أعرف من هو جاك إديما هذا... قلت له: إن هذا الشخص لا يعمل معنا؛ لأنني أعرف أسماء كل الأشخاص الذين يعملون معنا في أفغانستان. كان لدينا قرابة الثمانين شخصاً في تلك العملية، ولم يكن إديما واحداً منهم».

ومع اشتداد العمليات الحربية، انتقل جاك جنوباً إلى جلال آباد، حيث تابع هناك جني الأرباح من الحرب عن طريق أخذ رسوم من الصحافيين لحضور المؤتمرات الصحفية وتقديمه عروضاً لهم بأخذهم في رحلات استطلاعية إلى مناطق القتال مقابل 800 دولار للشخص الواحد، ومن بين الذين ذهبوا في هذه الرحلات جون لي أندرسون مراسل مجلة نيويورك ركر. وأصبح المراسلون ذوو التمويل الممتاز المتلهفون تحت ضغط من مسؤولي

التحرير في بلادهم لإرسال مواد إخبارية حصرية عن الحرب، مصدر العطاء الجزيل لجاك في أفغانستان. وتوافدت أعداد كبيرة من جموع الإعلاميين إلى فندق سبنهار ذي الجدران المتشققة في جلال أباد في أثناء معركة تورا بورا. ولأن إديما كان يشاهد داخلاً وخارجاً من الفندق يرافقه مجموعة صغيرة من الطاجيك المسلحين، ظن الصحافيون أن جاك وعصبته من المرتزقة كانوا منهمكين في البحث عن ابن لادن. وفي ذلك الوقت، كانت القوات الخاصة التابعة للجيش، وقوات سيل، ووكالة الاستخبارات المركزية هي التي تقوم بتلك المهمة، وبطريقة شبه مكشوفة، حيث كانوا ينطلقون في تلك العملية من الفنادق، والقواعد العسكرية، ومعسكرات القيادة، مستقلين سيارات مغبرة رباعية الدفع. وكلهم كانوا خاضعين لأوامر تفرض عليهم الابتعاد عن وسائل الإعلام، وتسمح لهم، عند الضرورة، باستخدام عملائهم الأفغان في تهديد، وضرب، أو اعتقال الصحافيين الذين يحاولون الاقتراب منهم. وعلى العكس من ذلك، كان إديما يضع نظاراته الشمسية الطبية، ويضع الكوفية الأفغانية حول رقبته، ويلبس زياً عسكرياً أمريكياً من صنع أفغاني، ويضع مسدساً في جيب سرواله ويحمل بيده بندقية رشاشة من نوع كلاشنكوف، ويجمع حوله مئات من الصحافيين قليلي الخبرة ممن وصلوا حديثاً إلى أفغانستان. وقد أقتن الإيماء برأسه إيماءة العارف الذي لا يريد الإجابة بل التمويه حين كان يرد على الأسئلة الصعبة والعويصة، وكان يربك السائل بوابل من المصطلحات العسكرية التي يستخدمها أفراد القوات الخاصة، وبصراخ غاضب على المشاعر غير الوطنية. وأصبح إديما، بفضل وجود عدد من كبار الإعلاميين الذين لم يترددوا في طلب خدماته، مصدراً متخصصاً للقصص المثيرة، والمستشار الملهم المفضل لدى وسائل الإعلام. أما الصحافيون الواعون، فسرعان ما ظهر لهم أن قصص وروايات جاك لا تتسجم مع الحقيقة، بخلاف البقية الذين انخدعوا بجاذبيته وغروره، وحرصوا على كتابة وتسجيل كل كلمة يلفظها.

استمتع إديما بهذا الاهتمام الإعلامي، وهو يمتلك أحياناً مهارة دقيقة في التلون بحسب رغبة وسائل الإعلام. ولكنه مع ذلك يمكن أن يكون منحرفاً غريب الأطوار؛ فذات مرة أطلق الرصاص من مسدسه صوب تود روبرسون الذي يعمل في صحيفة دالاس مورنينغ نيوز، ولكنه هنا ليندا فيستر التي تعمل في محطة فوكس نيوز على نجاحها في إجراء مقابلة

مع «شخص من القوات الخاصة». وشاع عنه لقب «جاك الزفت» في أوساط الإعلاميين المتشككين بأمره، وهو لقب صادق ينطبق على الخدمات التي يتقاضى عليها مبالغ طائلة. وكان يتحدث أمام الصحافيين أو أي شخص يرغب في الاستماع إلى سلسلة من القصص والأساطير المتجددة، واصفاً نفسه بأنه «مستشار لتحالف الشمال» أو الوصف المطاطي الفضفاض «خبير»، حتى إنه استطاع أن يحصل على منصب مدفوع الأجر لمدة محدودة لدى محطة فوكس نيوز تحت وصف مستشار إخباري. حتى تحالف الشمال الذي يرتبط معه بعلاقة حميمة كما هو مفترض، لم يسلم من طمع جاك وجشعه؛ إذ طلب جاك ذات مرة من الزعيم الأفغاني المدعوم من وكالة الاستخبارات المركزية هزرات علي أن يقدم تقريراً موجزاً عن العمليات لوفد مهم من مسؤولين في البنيتاغون في فندق سبنغهار. ثم تبين أن «المسؤولين» الذين تحدث عنهم جاك كانوا مراسلين صحفيين أخذ جاك منهم مبلغ 100 دولار مقابل حضور إيجاز إخباري «حصري» من هزرات علي.

وعلى الرغم من تمكنه من جني بعض المال من هنا وهناك من وسائل الإعلام، إلا أن أكبر صفقاته حدثت في كانون الثاني / يناير من عام 2002، حين باع أشرطة مدتها 7 ساعات عن تدريبات القاعدة كما ادعى لمحطة سي بي أس نيوز التي قدمت العرض الأعلى في المزاد العلني الذي أقامه لبيع تلك الأشرطة. ومع أن وكيل إدِيمَا الذي أدار المزاد واسمه ويليام موريس اقترح أن يبدأ المزاد من 150 ألف دولار، إلا أن التقارير أشارت إلى أن محطة سي بي أس دفعت زهاء 30 ألف دولار أو 60 ألف دولار مقابل أولوية بث هذه الأشرطة. كما زادت البيوع الثانوية لتلك الأشرطة لمحطات أخرى مثل بي بي سي، وإيه بي سي، وإن بي سي، وغيرها، لتزيد في دخل إدِيمَا. أما محطة سي إن إن فلم تدخل في المزاد ولم تهتم بتلك الأشرطة بعد أن تقصت عن إدِيمَا وعرفت حقيقته، ولم تكلف نفسها عناء الرد على رسائله ودعواته لدخول المزاد على تلك الأشرطة. وفي منتصف يناير، عرضت محطة سي بي أس مقابلة مع إدِيمَا في برنامج ستون دقيقة- 2 وأخرى في نشرة الأخبار مع دان راذر. وبحسب ما يقول إد آر تيس عن إدِيمَا، فإنه «حقق الضربة الإعلامية الكبرى حين أقتع محطة سي بي أس بشراء أشرطة المزورة عن القاعدة». ويشير آر تيس إلى أن تلك الأشرطة التقطت بكاميرا قديمة 8 ملم هاي-8 فيديو كاسيت - وهي آلة التصوير

نفسها التي جلبها إديما معه حين لقي آرتيس. «في البداية ادعى أنه هو الذي صور تلك الأفلام؛ ثم ادعى أنه اشتراها؛ ثم قال بأنها أعطيت له؛ وأخيراً زعم أن مصوراً يابانياً هو الذي التقط تلك الأفلام».

تعرضت مهمة جاك في أفغانستان التي أخذها على نفسه لتوقف مفاجئ في حزيران/يونيو من عام 2002 بسبب وفاة أمه، فاضطر إلى العودة إلى موطنه في نيويورك. وبعد الفراغ من دفن والدته بمدة غير طويلة، توجه إديما إلى فايتفيل في ولاية كارولينا الشمالية للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الخمسين لإنشاء القوات الخاصة.

يقول إديما: إن رغبته بالالتحاق بالقوات الخاصة تكونت منذ اليوم الأول الذي عرض فيه فيلم جون وين، وهو فيلم مؤسس على كتاب عنوانه «البريات الخضراء» للكاتب روبن مور. كما أن والد إديما شارك في الحرب العالمية الثانية في قوات المارينز، وأدت خدمته المحدودة في الجيش دوراً كبيراً في تكوين هويته الشخصية، مع أن سجله المهني في القوات الخاصة يكشف عن خلفية مضطربة وقدرات مشكوك فيها. ويظهر سجل إديما العسكري من الوهلة الأولى أنه سُرح من الخدمة العسكرية بعد ثلاث سنوات في الرابع والعشرين من شباط/فبراير من عام 1977، تسريحاً مشرفاً. ولكن تقريراً صدر بتاريخ 18 آذار/مارس، 1977 يصف مستوى أدائه بأنه «أقل من الاعتيادي»، ويذكر التقرير من بين الأسباب التي تجعل منه جندياً فاشلاً: ضعف التركيز على التفاصيل، والإخفاق في اتباع التعليمات، وعدم القدرة على تقبل النقد البناء. ويذكر تقرير آخر حرره النقيب جون دي كارلسون أن إديما «هو من دون شك الجندي الأكثر افتقاراً إلى المهنية، والتحفيز، والرشد من بين الجنود الذين عرفتهم في حياتي».

وعلى الرغم من هذه الآراء اللاذعة، استطاع إديما أن يستخدم تدريبه ومهاراته التي اكتسبها من خدمته العسكرية في تأسيس معهد للتدريب على مكافحة الإرهاب في ردهوك في نيويورك، أطلق عليه اسم كون - تر. ولم يستمر عمله طويلاً، ولكنه تمكن من الحصول على صورة تظهر ابن رونالد ريغان وهو يزور المعهد. وتأسيساً على خلفيته العسكرية، كانت خطوة إديما اللاحقة في حياته المهنية هي تأسيس معرض تجاري للقوات الخاصة، تعرض فيه أحدث المعدات العسكرية، ويكون مكاناً يجمع المهتمين في هذا المجال للتواصل

وتَعْرِفُ بعضهم على بعض. وفي واحد من هذه المعارض التي أقامها، تعرف إديما إلى روبن مور، صاحب الرواية التي كانت سبباً في التحاق إديما بالقوات الخاصة.

وبحسب ما يقوله مور، فإن اللقاء أعقبه تواصل بين الاثنتين في الحفل الذي أقيم بمناسبة الذكرى الخمسين لإنشاء القوات الخاصة في صيف عام 2002. وفي ذلك اللقاء أخبر مور إديما عن مشروع كتابه الجديد، وهو كتاب عن القوات الخاصة في أفغانستان. وعلى الفور أقتنع إديما مور بأن خبرته وتجربته في أفغانستان وخلفيته العسكرية يمكن أن تفيد كثيراً في هذا الكتاب؛ وبذلك بدأ تعاون مشؤوم بين الاثنتين أسفر عن خروج كتاب «مطاردة ابن لادن».

تمتع روبن مور بعد إصدار كتابه الأول «البريات الخضراء» بمصداقية عالية لدى المؤسسة العسكرية. لذلك استخدم مور معارفه وأصدقاءه وقنوات اتصاله في الجيش بعد بدء العمليات العسكرية؛ لكي يحصل على التسهيلات اللازمة لتأليف كتابه الجديد عن القوات الخاصة في أفغانستان. والمشكلة هي أن مور كان في أواخر السبعين من عمره، ويعاني مرض الباركنسون. وبخلاف كتابه الأول، حيث قام بمشاركة الجنود في تدريباتهم الأساسية، وأمضى بعض الوقت في ساحة المعركة في فيتنام، فإن مور العجوز قد اكتفى الآن بإجراء المقابلات مع فرق القوات الخاصة التي تعود من أفغانستان إلى قاعدة كي توي في أوزبكستان. وكما يتذكر أحد أفراد كتيبة العمليات ألفا-595 الذي تظهر صورته على الغلاف الخلفي من الكتاب، فإن «مور كان يغط في النوم في أثناء المقابلات، وينسى تشغيل آلة التسجيل».

جرى أكثر العمل في ذلك الكتاب على يد كريس تومسون، وهو الذي ساعد مور في جمع وتحرير المقابلات، وأخرج كتاب «مطاردة ابن لادن». وكان مفهوماً أن الكتاب بحاجة إلى شيء يجمع بين المقابلات المنفصلة، ويكون المحور الذي يدور حوله الكتاب. واقترح جاك إديما أنه سيكون الشخصية المركزية الأمثل لهذا الدور، فهو جندي غامض سابق في القوات الخاصة تحوّل إلى متعهد أمني جاء إلى أفغانستان ليشن حرباً بنفسه على الإرهاب. أما مور وتومسون فرأيا أن ذهاب إديما إلى أفغانستان بوصفه شخصاً مدينياً يضيف عنصراً مشوقاً إلى الكتاب.

كان جاك على درجة من الذكاء مكنته من إبرام صفقة جانبية مع وكيل مور للنشر يحصل بموجبها على نسبة مئوية من الأرباح مقابل كتابة قسم كبير من الكتاب. وفي صفحة الشكر في الكتاب، أثنى مور ثناءً جزيلاً على كرس تومسون، وهو جندي سابق خدم أبوه في القوات الخاصة الأمريكية، غير أن الكتاب تحوّل إلى واجهة لعرض شخص اسمه «جاك»، حتى إن غلاف الكتاب عرض صورة إديما وهو معصوب الرأس حاملاً بندقية رشاشة ومسدساً على خصره، ومحاطاً بثلة من أعوانه الأفغان. وورد اسم «جاك» في الكشف تحت فصل «جنود القوات الخاصة».

لقد كنت من بين الذين أجريت معهم مقابلات في كتاب «مطاردة ابن لادن» ويمكنني التحدث من تجربتي الشخصية وأقول: إن أكثر المعلومات الواردة في ذلك الكتاب هي معلومات غير صحيحة، وتفتقر إلى التوثيق، وكتبت من مكان بعيد عن مسرح العمليات، مما أدى إلى الخلط بين التفاصيل الدقيقة. وقد وضعت صورة لفريق كنت أرافقه من القوات الخاصة على الغلاف الخلفي للكتاب. ومع أن أعضاء هذا الفريق لم يسبق لهم أن قابلوا جاك شخصياً، ولم يتحدثوا إليه، ومع أن أكثر أعضاء الفريق قد وصفوا بالتفصيل الدقيق للسيد مور في قاعدة كي - تو العمليات التي يقومون بها، فإن الفصل الأول من الكتاب يتحدث عن روايات دخول الفريق إلى أفغانستان، وهي بحسب ما ذكره لي محض اختلاق. وبخلاف ما يذكر الكتاب، لم يكن هناك إطلاق نيران، ولم يكن هناك دراما؛ إذ هبطت طائرتهم في الليل، وكان في استقبالهم فريق من وكالة الاستخبارات المركزية، بمن فيهم مايك سيان، ثم شرعوا في إنزال أمتعتهم.

اقترف إديما خطأً قاتلاً حين أدرج الأسماء الحقيقية لأعضاء الفريق واختلاقه عمليات لم تحدث أصلاً. ويركز الفصل الأول من الكتاب في أكثره على مراقب جوي من سلاح الجو اسمه ماثيو مع أن ماثيو الحقيقي وصل أفغانستان بعد أيام من وصول الفريق. في حين يتحدث الكتاب عن ماثيو وهو يصرخ مستنجداً «إننا على وشك السقوط أسرى بيد العدو... أريد إسناداً جويّاً في الحال!» وينقل الكتاب رد طياري قاذفة القنابل بي-52 على استنجد ماثيو بالعبارة البالية «القنابل في طريقها». وينقل عن جنود القوات الخاصة في الميدان قولهم: «يا إلهي، غير معقول!»، وهم يراقبون «جثث مئة من قوات

طالبان والقاعدة وهي تتطير إلى الأعلى، وترتج أرجلهم وسواعدهم في أقل من الثانية قبل أن تتحول إلى سديم وردي في الهواء، ولا يتبقى من أجسامهم ولا ملابسهم أي أثر». وفي حين أن قصة دخول القوات الخاصة إلى أفغانستان هي القصة الأطول في الكتاب، فإن عنصر الخيال الذي يناسب الأفلام الرخيصة تسيطر على أكثر العمل.

وقد ذكر لي أحد الجنود الذين أتقن إديما وصفهم بإبداع وهم يرددون «نشيد البريات الخضر» بعد إحدى المعارك، قائلاً: «إنهم يزيدون من مخاطر أمننا الشخصي في كل مرة يلفقون علينا مزيداً من القصص». أما زوجه، فلا تخفي غضبها من قرار نشر الأسماء الكاملة للجنود المذكورين في الكتاب مقرونة بصورهم ورتبهم. وتشعر أن بإمكان أي إرهابي يملك مهارة بسيطة في استخدام الحاسوب، أن يحدد عناوين مساكن هؤلاء الجنود بغية الانتقام من أسرهم في الوقت الذي يذهب فيه الأزواج في مهمات عسكرية مطولة في الخارج.

وفي نهاية القصة الخيالية في هذا الكتاب غير الخيالي، ينتحل «جاك» صفة شاعرية لشخصية جندي ثمل بالفودكا وعصير الرمان، يحمل على جنبيه مسدسين من نوع ماكاروف، ويردد بلسان ثقيل عبارة مشوهة ممسوخة من الأفلام. «يا إلهي، إنني أكره انتهاء الحرب»، وهذه الشخصية تحاكي شخصية العقيد كليغور من فيلم نهاية العالم الآن. «وبعيني المتعبتين اللتين تعانين زجاجة الويسكي، يتأمل جاك ما لا يمكن تأمله «وفي أثناء الحرب، بدا جاك في كل مكان... ولكن هل كان جاك شخصاً واحداً، أم عدة أشخاص؟» وربما كان في هذا السؤال مفتاح المرض العقلي الذي يعانيه «جاك» والنظرة المدمرة للحقيقة والولاء.

ولزيادة الطين بلة، ورد في ملحق الطبعة الأولى من الكتاب قائمة لست منظمات خيرية تقدم الدعم لأفراد القوات الخاصة، ولأسرهم وأطفالهم، وكذلك للشعب الأفغاني. ولا يمكن إلا لعين فاحصة أن تلاحظ واحدة من تلك المنظمات المذكورة، وهي منظمة أمريكية مناهضة للإرهاب، ووجه إليها الشكر على تزويد الكتاب بمجموعة من الصور التي نشرت فيه، منها صورة لجاك إديما راكباً سهوة حصان. وهذه المجموعة ليست سوى «كون-تر»، وتشير سجلات البريد الأمريكي إلى أن عنواناً آخر يقال: إنه

لمجموعة خيرية تساعد القوات الخاصة أفضت إلى الكشف عن صندوق بريد وحساب مصرفي يعودان لإديما.

بدأ الكتاب منذ عرضه في الأسواق بتسلق قائمة أفضل الكتب بيعاً، وهو ما أفرح مور. لكنه بعد ذلك بدأ يتلقى عشرات الرسائل الإلكترونية الاحتجاجية من جنود القوات الخاصة، ومن ذوي الجنود الموجودين في أفغانستان. واعترف مور للجنود الذين خدعوا بأنه اضطر إلى «إضفاء نوع من الإثارة» على الكتاب، وقال: إنه وضع بعض التعديلات التي لم تجد طريقها إلى الكتاب، والتمس الجنود العذر لمور على وقوعه في هذه الخديعة بسبب كبر سنه وضعف قدراته العقلية، ذلك أنه لم يكن لديهم أدنى فكرة عن تورط الشخصية غير المعروفة التي ظهرت صورتها على غلاف الكتاب. وفي النهاية، فإن الرجل الذي صنع أسطورة البريات الخضر قد نقض، بسبب إديما، أربعة قرون من الثقة التي كانت قائمة بينه وبين القوات الخاصة. وراقب مور بقلب تعتصره المرارة توالي التعليقات اللاذعة على صفحات موقع أمازون لبيع الكتب عبر الإنترنت وعلى موقعه الشخصي التي تصف كتاب «مطاردة ابن لادن» بأنه رواية خيالية ووصمة خزي وعار.

وكان إد آرتيس من بين الذين عبروا عن وجهة نظرهم بإديما على الموقع العائد لمور، وهو ما دفع إديما إلى رفع دعوى على آرتيس، وقال آرتيس: «إنه يقاضيني على تشويه سمعته... تبا له. دعه يقاض شخصاً ميتاً». (أصيب آرتيس بنوبة قلبية طفيفة عام 2004 في أثناء قيامه بمهمة إنسانية في الفلبين.) ورد القاضي الدعوى أواخر عام 2005.

وأثار بيلى واه هو الآخر انزعاج إديما، إلا أن خلفية واه في القوات الخاصة جعلت إديما يحجم عن مقاضاته في المحاكم، حتى الآن. وقال واه: «يدعي إديما أنني شوهت سمعته»، وأقول: إنني لم أتحدث عنه بما يسيء إلى سمعته؛ إن ما قلته كان الحقيقة. فهو لم يكن يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، كما أنه لم يقيم بأي من الأشياء التي زعم أنه قام بها في كتاب روبن مور».

وبدأ إديما بمعركة كلامية وكتابية عبر البريد الإلكتروني مع بيلى واه (مع توجيه نسخ من تلك الرسائل إلى جم موريس، وبوب براون، وبوب موريس، وناشر مجلة جنود من أجل

المغانم (سولدرجز فور فورتنشن) وفي 17 آذار/ مارس من عام 2003، وجه إديما تهديداً عبر البريد الإلكتروني قال فيه: «إن أي شخص يعتقد أن عليه أن يركب موجة الكراهية والهراء الموجهة ضدي، فإن عليه أن يكون مستعداً؛ لأننا سنذهب إلى المحكمة وسنرى من سيكسب هذه الجولة. وأنت أيها الولد ببلي، ليس لدي مشكلة في مقاضاتك إذا واصلت بث هذا الإفك والهراء عني». ويتذكر ببلي أن حرب التهديدات بينهما تطورت إلى ما هو أبعد من مجرد الدعاوى القضائية. اتصل بي إديما وهددني. فقلت له: «اجلب كل ما عندك إن كنت رجلاً؛ لأن لدي ست بنادق وبعض الشرك الملقومة المنصوبة حول منزلي». ثم اتصل بي بعد ربع ساعة وقال: «لن أفعل شيئاً معك لأنني أعرف أنك تتمتع بسمعة عظيمة». وهذا صحيح. وإن كان يظن أن بإمكانه أن يتوعدي، فإنه مخطئ.

لم يقدم إديما على مقاضاة أسطورة البريات الخضر (القوات الخاصة) ببلي واه، لكنه قام في آذار/ مارس من عام 2004، وقبل عودته إلى أفغانستان، برفع دعوى على كريس تومبسون وأبويه، وصديقه روبن مور، إضافة إلى فوكس نيوز، والعقيد بوب موريس، وإد آر تيس، وغيرهم من الأعداء المتصورين. وعلى ما يبدو، فإن جاك كان يحاول جاهداً حماية الصورة الجديدة التي اتخذها لنفسه بوصفه جيشاً من رجل واحد يطارد ابن لادن.

محامون، وبنادق، وأموال

في شهر نيسان/ إبريل من عام 2004، عاد إديما الذي بلغ من العمر 48 عاماً إلى أفغانستان بعد أن حصل على ما يكفيه من المال من كتاب مور. لكنه عاد هذه المرة ومعه فريق من الموظفين الذين استأجرهم. ومن بينهم إد كاربالو المصور المخضرم في محطة سي بي أس، وبرنت بينيت، وهو جندي سابق، وكان يعمل نادلاً في مطاعم روبي تيوزدي في مدينة فاينتليل. وبعد أن حط رحاله في أفغانستان، استأجر إديما منزلاً وسيارة، واستعمل عدداً من الأفغان لتقديم الدعم المحلي. وأطلق على هذه المجموعة من المرتزقة اسم «الوحدة الحربية سيف 7» وهي تحريف للاسم الرسمي الأصلي لحملة القوات الخاصة الأمريكية في أفغانستان المسماة الوحدة الحربية خنجر. وكانت مجموعة إديما ترتدي زياً عسكرياً موحداً على نمط الزي الأمريكي، مخيطةً عليه العلم الأمريكي، وغالباً ما

كانوا يحملون السلاح، وهو المظهر الذي دفع كثيراً من السكان المحليين إلى الاعتقاد أنهم عناصر وحدة سرية من المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. ومن منزله الكبير في كابول، بدأ إديما وفريقه بتصوير ما يمكن وصفه بأنه فيلم واقعي غريب عجيب. ويملك إديما قدرة عجيبة على المحاكاة والتقليد. وقام بإنشاء ما يمكن الاعتقاد بسهولة أنه عملية شبه عسكرية لوكالة الاستخبارات المركزية بكامل عناصرها، بما في ذلك مقرها المحلي الآمن، ومجموعة الأعوان الأفغان، واتخاذ موقف متكتم تجاه من يستفسر أو يسأل عن نشاط المجموعة. ولكنه كان مع ذلك يجب الظهور الإعلامي حين يكون ذلك ملائماً لأهدافه. وكانت المحطات الإخبارية تدفع مبالغ طائلة لأي قصة تحتوي على عنصر الإثارة حول الإرهاب في أفغانستان، وبدا أن إديما كان عازماً على استغلال هذا الطلب في السوق الإعلامية.

وسرعان ما زعم أنه كشف النقاب عن مؤامرة تقوم على وضع المتفجرات في سيارة تكسي ومهاجمة أهداف أمريكية وأفغانية، وتمكن من إقناع قوات حفظ السلام الأجنبية التي صدقت كلامه بكل سذاجة في ثلاث مناسبات بتوفير مزيد من الحماية في أثناء جولاتها ومداهماتها، وكان جاك يتولى قيادة هذه الحماية الإضافية بمنتهى الإثارة الدرامية والبطولة الاستغزائية المصطنعة فيما كانت عدسة كاربالو تسجل تلك المشاهد. وحين تيقن إديما أن بحوزته مفتاح الحظ، عرض شريط الفيديو الذي يصور «الإرهابيين» الذين قبض عليهم للبيع بربع مليون دولار، غير أن المحطات الإعلامية قد بدأت تشك في صدق إديما، ولم تشتري أيّاً من تلك الأشرطة.

وقامت الوحدة الحربية سيف 7 بإمطار المصادر المحلية بالأسئلة وجمع المعلومات، وشرعت «باعتقال» أو الأحرى باختطاف الأفغان الذين اعتقد إديما أنهم تابعون لطالبان أو القاعدة. وجرى حجز المعتقلين، واستجوابهم وتعذيبهم في منزل الرعب الذي اتخذه إديما مقراً له في كابول. وفي 3 أيار/ مايو، قام جاك وعصابته بتسليم أحد الأفغان المعتقلين إلى السلطات الأمريكية، وقاموا بتصوير عملية التسليم في باغرام. ووصف جاك ذلك الأفغاني الذي تعرض للتعذيب بأنه «هدف ذو قيمة عالية»، غير أن الجيش الأمريكي أخلى سبيله دون توجيه أي تهمة إليه. أما شهر سجناء إديما على الإطلاق فلم

يكن معتقلاً بسبب علاقاته بالإرهاب، بل بسبب منصبه بوصفه أحد كبار الشخصيات البشتونية، وقاضياً في المحكمة العليا الأفغانية.

لم يكن جاك يعلم أن التهديدات المتهورة التي كان يطلقها برعونة، والقضايا التي رفعها في المحاكم، وأعمال الغدر والخيانة التي ارتكبها بحق كثير من الناس، قد أوجدت شبكة متنامية من معارفه وأصدقائه السابقين الذين عقدوا عزمهم على وضع حد له. فهو لم يعد يحتج بوجود مؤامرة تستهدفه؛ لأنه هو الذي أوجد هذا الوضع الجديد بصنع يديه.

من بين هؤلاء، محقق خاص غمطه جاك حقه بنسبة 15% من عوائد قضية نجح فيها إديما، وشخص آخر يعمل في حقل الإغاثة الإنسانية احتال عليه جاك، ومؤلف قضى على سمعته، وضابط في الجيش استخدمه، والقائمة تطول. كَوّن هؤلاء شبكة سرية لجمع وتبادل المعلومات والوثائق بهدف الكشف عن حقيقة إديما. كما أن عدداً من الوكالات الحكومية الأمريكية، والجيش، إضافة إلى أجهزة الإعلام، كانت تقوم بالتحقيق في نشاط جاك. مع العلم أن جاك لم يكن يعلم أي شيء عن هذه التحقيقات التي تحوم حوله.

كما أن جاك لم تكن لديه أدنى فكرة عن وجود جاسوس داخل منظمته، وهذا الرجل كان مهندساً يعمل مع إديما في أفغانستان، وكان معجباً بشخصية جاك الجذابة وحبّه لأعمال الإثارة. وبعد مضي بعض الوقت في التعامل معه، بدأ هذا الرجل بإدراك جنون إديما وأخذ يلتقط صوراً لجاك وهو يعذب سجناء الأفغان، ويرسلها سراً إلى عدد من الناس. والحقيقة أن هذا الجاسوس لم يكن بحاجة إلى توزيع صور جاك؛ لأن جاك نفسه كان يرسل تلك الصور وأشرطة الفيديو حول عملياته في محاولة منه لإقناع وسائل الإعلام بشرائها. ومع ذلك، لم يكن هناك من يريد اعتقال جاك أو إيقافه عند حده. وطلب جاك إلى وسائل الإعلام الدخول في مزاد لشراء أشرطة الإرهاب الجديدة التي صنعها بنفسه كاملة مع مشاهد الإثارة وهو يرفض الأبواب ويعتقل الأفغان. وشاهدت وسائل الإعلام تلك الأشرطة بذعر ولكنها لم تقل شيئاً.

أصبح جاك يمثل جيشاً خاصاً بنفسه، يعاونه عدد من المتعاقدين المستقلين في هذه المهمة الجديدة لجني الأرباح من وراء التعذيب. أدى كاربالو دور المصور لمشاهد الإثارة،

ثم ترك الكاميرا تعمل لتسجيل التحقيقات. هل كان هذا العمل من قبيل العمل الصحافي، أم الترفيه، أم أنه توثيق للأدلة؟ يعتقد كثيرون أن قيام جاك بتلك الأعمال وعلى تلك الصورة من الجرأة والتهور قد دفعت إلى الاستنتاج أن إديما لا بد أنه كان يؤدي عملاً مهماً وسرياً، وبموافقة المسؤولين في الدوائر العليا من الحكومة الأمريكية. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة استخبارات الدفاع تستخدمان فعلاً ما يظهر أنه علاقات غامضة غير محددة مع جنود سابقين تحولوا إلى متعهدين أمنيين في أفغانستان، ولهذا السبب بدت عملية جاك منسجمة مع هذا النمط.

استغل جاك هذا الانطباع أيما استغلال، وربما حاول أن يرقى بنفسه إلى موقع الشخص الذي يتمتع بالحصانة الرسمية. ومع عدم وجود أي دليل يشير إلى أن إديما حقق ذلك، إلا أن اتصالاته بمكتب الفريق جيرى بويكن نائب وكيل وزير الدفاع لشؤون الاستخبارات وإسناد العمليات العسكرية، تدل على أنه كان يحاول ذلك.

ويشتهر بويكن بإيلائه أذناً صاغية للأفراد الذين سبق أن خدموا في وحدات القوات الخاصة ويقومون بمهمات وطنية. وبدأ إديما بسلسلة من الاتصالات مع مكتب بويكن، وأضفى هدفهما المشترك في اجتثاث الإرهابيين طابعاً إيجابياً على الحوار، وشجّع المسؤولين الحكوميون في المراتب المتوسطة والدنيا جاك على تطوير معلومات استخباراتية راسخة، ووعدهم جاك في رسالة إلكترونية مبهمة بأنه كان على وشك القيام بعملية دهم مهمة. وليس من المستغرب أن جاك كاربالو سجل المكالمات مع مكتب بويكن. وفي أثناء واحدة من تلك المكالمات، رد شخص يدعى جورج شيم على الهاتف وأكد أنه نقل المعلومات إلى بويكن وأنهم سيراجعونه بشأنها، وهذه المكالمات على غرارها، استخدمها جاك لإثبات ارتباطه بالجيش الأمريكي مع أن المكالمات تثبت أن جاك اتصل بمكتب بويكن وحسب. وكما يحب إد آرتيس أن يوضح ذلك بقوله: «هناك دوماً خيط من الحقيقة في كل ما يفعله جاك، ولكنه ينسج بساطاً كاملاً حول ذلك الخيط». وقد نفى كل جهاز من أجهزة الجيش الأمريكي نفياً رسمياً أي علاقة لهم بإديما. وأي اتصال بالمكتب الإعلامي في البنتاغون سيثير الرد القوي والحازم الآتي: «لا وجود لأي علاقة - وأكرر لا وجود أي علاقة من أي نوع مع إديما». والإجراء الاعتيادي المتبع في البنتاغون هو نفي أي ارتباط له مع أي شخص

مكلف بالقيام بعملية سرية لحسابه. ولا سيما إذا كان هذا الشخص قد أثار فضيحة كبرى. أما في حالة إديما، فإن البنتاغون كان يقول الحقيقة؛ لأن إديما كان يحرص على تصوير كل حركة يقوم بها، ولا سيما تلك التي كان يظهر فيها وكأنه يقوم بعمل مهم. ولو كان يعمل حقاً بموجب تفويض رسمي، لكان بيده دليل أقوى من الأدلة التي قدمها على وجود علاقة رسمية بالحكومة الأمريكية. ولو كان بويكن قد اتصل بإديما لكان في حكم المؤكد أن يكون كاربالوق قد سجل تلك المكالمات. إضافة إلى ذلك، فإن قيام إديما بتسجيل الأشرطة ومحاولة بيع الأفلام التي تصور عملياته تجعل من المستحيل تصور أنه كان يدير برنامجاً بعلم وموافقة الحكومة الأمريكية.

والمفارقة العجيبة التي تبرز من هذه القضية هي أنه لو كان هناك متعهد أممي يعمل لحساب الحكومة الأمريكية لتمكن من تطوير علاقة حميمة مع وسائل الإعلام وكان يحاول الاستفادة المادية من المشاهد التي التقطها في عملياته المفترض أن تكون سرية، ولكان الجيش الأمريكي أسرع في إنهاء عقده، وأعماله، وإغلاق مقره. ومع أنه كان من الواضح أن إديما لم يحصل على تمويل أو دعم الحكومة الأمريكية، إلا أن قيام جاك بإدارة سجنه في عنوان ثابت في كابول عدة شهور على مرأى ومسمع المسؤولين الأمريكيين، يشير إلى أن هؤلاء المسؤولين كانوا على دراية بنشاطات وحدة سيف - 7، وأنهم ربما أقرروا ضمناً باستمرار نشاطها وعدم إعاقتها. ومع كون ابن لادن حراً طليقاً، ومع وجود عناصر من طالبان والقاعدة تجوب شوارع كابول، فإن وجود عملية قابلة للإنكار التام، يديرها عسكري سابق تتطابق أهدافه مع الأهداف الأمريكية، لا بد أن تكون من الموارد التي تخدم أهداف الحكومة الأمريكية في أفغانستان. لكن هذه النتيجة تكون صحيحة لو استطاع إديما أن يحقق نتائج ملموسة. وفي ضوء غياب أي انجاز ذي شأن، إضافة إلى الفضائح المتصاعدة حول الأسلوب الذي كانت تتبعه وحدة سيف - 7، تعني أن إديما وأعوانه لم يستمتعوا بحرية عملهم مدة طويلة.

وحالما انتهى إلى علم أحد العاملين الأصليين في العمليات السرية -بيلي واه- ما يفعله إديما في أفغانستان، بدأ من فوره بإطلاق تحذيرات الإنذار: «أخبرت الجنرال براون من مركز قيادة العمليات الخاصة (سوكوم) أن إديما يقوم بضرب الناس ويدير

معتقلاً لسجناء الحرب... وقامت سوكوم بتوزيع ملصقات ومنشورات إلى وحدات الجيش الأمريكي تتصحهم بعدم التحدث إلى ابن الفاعلة. ووزعت هذه المنشورات والملصقات في باغرام، وطشقند، وفي كل مكان. كما قامت وكالة الاستخبارات المركزية بتوزيع تلك التعليمات. وقبل إلقاء القبض على إديما، كنت أحرص على إيصال التحذيرات إلى الجميع. لكن حين يأتي إديما ويقول للناس، مثلما قال ليوين، بأنه يقوم بعمل مجاز من الحكومة الأمريكية، فهذا منتهى الذكاء». حتى إن الوزير الأفغاني يونس قانوني اعترف أن إديما خدعه حين دفعه إلى الاعتقاد بأنه يمثل الحكومة الأمريكية.

وفي 15 أيار/ مايو من عام 2004، وبعد سنتين ونصف من قيام إد آر تيس بتحذير المسؤولين الأفغان والأمريكيين من وجود رجل محتال، مسلح، منفلت، يجوب أنحاء أفغانستان، بدأت السلطات الأمريكية بتوزيع منشورات وملصقات تحمل صور إديما مرفقة بأمر «القبض عليه أينما وجد». ومع ذلك، فإن إلقاء القبض على إديما وأعوانه لم يتحقق إلا في الخامس من تموز/ يوليو حين اقتحمت قوة من الشرطة الأفغانية منزله في كابول.

وكما هو متوقع، فقد أصر إديما على أنه يقوم بعملية في غاية السرية، وأنه يعمل بموافقة السلطات العليا. وقدم جاك أدلته، وهي المكالمات التي أجراها مع مكتب بويكن، إلا أن بويكن لم يكن على استعداد للقول: إنه يقر جاك على نشاطاته. وأصر إديما أيضاً أن بحوزته سجلات لمكالمات أجراها مع مكتب رمسفيلد وغيره من المسؤولين. وتبين أن السجلات كانت صحيحة، إلا أنها تثبت أنها كانت مكالمات استعلامية من طرف واحد.

وبعد محاكمة قصيرة- وهزلية بكل المعايير- دانت الحكومة الأفغانية كلاً من إديما، وبنيت، كاربالو بجرم إدارة سجن غير مشروع وتعذيب مواطنين أفغان. وحكم على إديما وبنيت بالسجن عشر سنوات لكل منهما، وعلى كاربالو بالسجن 8 سنوات. غير أن العقوبة خفضت إلى 5 سنوات لإديما، و3 سنوات لبنيت، وستين لكاربالو.

وعلى الرغم من إيداعهما في أكثر السجون الأفغانية شهرة، وهو سجن بوليتشاركي، إلا أن وحدة سيف 7 تمتعت فيه بأفضل ما هو متوافر من وسائل الرفاهية والأبهة. ويقال:

إن إديما قام برشوة أمر سجن بوليتشكاري، وهو لواء طاجيكي اسمه فهيم، للسماح له بوضع سجاد وكنبات في غرفته، إضافة إلى هاتف يعمل عن طريق الأقمار الصناعية، ونقطة اتصال بالإنترنت. وأفرج عن كاربالو في ربيع 2006 بعد أن أصدر الرئيس الأفغاني كرازاى عفواً بحقه بمناسبة السنة الأفغانية الجديدة، في حين استمر إديما الذي يمضي في السجن بقية المدة التي حكم بها عليه، في نشر موقعه الإلكتروني، وإجراء المقابلات مع المتعاطفين معه، والمجاهرة بأنه بريء من كل التهم التي نسبت إليه، ولعن المؤامرة التي تحول بينه وبين شن حربه الخاصة على الإرهاب.

يفترض الذين قابلوا إديما في أفغانستان أن ثمة شيئاً أكثر أهمية في هذه القضية، وأن شخصاً قوياً يقف خلف واجهة هذا الشخص الشديد. أما الذين يعرفون إديما حق المعرفة، فيرون فيه شخصاً محتالاً، وضيعاً، فضح نفسه في سعيه المستميت نحو الشهرة والمال. أما مالك فندق مصطفى في كابول، فينحو منحى تهكمياً هزلياً تجاه إديما بقوله: «إن الشيء الوحيد الذي ينبغي أن يسمح لجاك أن يهاجم هو فاتورة الحانة التي كان يرتادها في الفندق». وقد تكبد آخرون خسائر مالية، وعاطفية، ومهنية بسبب الدعاوى القضائية المتكررة، وحملات التشهير، والإساءة إلى السمعة، والحملات العدوانية المفرطة التي اقترفها جاك في حق أصدقائه السابقين.

إن السهولة التي تمكن بها شخص مجرم واضح الإجرام في الظهور بمظهر المتعاقد الأمني، وقيامه بتمثيل عملياته شبه العسكرية، هو نذير خطر حول تزايد انتشار المتعاقدين الأمنيين المستقلين. وينحوبيل هاغر، وهو محقق خاص سبق له أن تعامل مع إديما، بالمسؤولية على العالم الغامض للعمليات السرية «إنه العالم الذي لا يمكن فيه للجيش أن يثبت أو ينفي ارتباطه بالقائمين بهذه العمليات. وهذه أرض خصبة للأشخاص المحتملين من أمثال إديما».

